

حوار جديد

بقلم عبد الله الخطيب

الوحيد الذي افاموه بينهم للقاء ، هو جسر الموت ، وبين رجال الدين الذين كان كل فريق منهم يعتقد انه وحده المؤمن ، وان الآخر كافر ، لقد ثار عليهم ابو بكر الرازي منذ القرن العاشر الميلادي (وهو ذلك الفيلسوف الذي ترجمت اكثر كتبه الى اللاتينية هنا في ايطاليا - البندقية وصقلية - ثار على الاتجاهات الاستغالية للاديان كلها ، لانها عنده « اخرجت الناس في سلوكهم وعاداتهم السيئة ، وزادت من ضيق عقولهم ، بالاضافة الى ماسيبتهم بينهم من حروب وعداوات ، وما سببتهم من عداوة رجال الدين للفلسفة والفلاسفة ، في حين ان الفلاسفة افادوا الانسانية اكثر من الانبياء ») احمد امين - ظهر الاسلام . ج - ص : ١٨٦ .

وبعد الرازي اضيف الى العداوات الدينية ، عداوات الافنصاد والحريية ، والسياسية واتني جعلت لخدمتهما . كان الاتصال الوحيد الذي لم يقع الا نادرا في علاقاتنا الحديثة ، هو الاتصال بين المثقفين ، هؤلاء ليست بينهم ، على الاقل من حيث المبدأ ، عداوة تسيهرها الاطماع التجارية او الحيلة السياسية ، او التدمير العسكري ، او الخقد الديني ، انهم يؤمنون بقيمة وحيدة فوق كل القيم المالیة والسياسية والعسكرية والدينية ، وهي كرامة الانسان ورفقه . واليوم وفي هذا الحوار الجديد بيننا وبينكم ، ماذا نمثل كلنا ، نحن وانتم ؟ هل نمثل مجتمعاتنا ؟ هل نمثل انفسنا فقط ؟ هل نمثل حضارة ؟ اما فيما يخص حضارتنا نحن فقد خرجنا منها . وحضارتكم لم ندخلها بعد . لان السباق بيننا وبينكم كالسباق بين اخيل والسلفحة عند زنون في ابطا الحركة .

لا نمثل مجتمعنا لاننا اقلية فيه ، نحن وحدات ضائعة في خضم لا يكاد يشعر بنا ، نحاول ان نعيش معكم ، ولكننا لا نريد ايضا ان نقطع عن مجتمعنا . ومجتمعنا ما يزال يعيش مع اجداده وهو يجهلهم وهو دون مستواهم ، بما تركوا له من مسكن وعادات وفكر . هم يؤثرون فيه لانهم يعيشون معه حياته اليومية ، ولا يستمع الى اقوالنا لاننا نرمي بها اليه ونحن مارون في سيارتنا امام كوخه . اننا لم نستطع ان نلتحقكم انتم ، ولا ان نبقي مع مجتمعنا ، حيث هو يقعد به الجوع . فيشعر بعضنا بالحاجة الى الثورة ونحن مختنقون في ملابسكم لاننا لم تخلق لحرارة الشمس في صحرائنا .

اما السعداء منا فيخلقون جنة لانفسهم من اوراق البلاستيك - يقيمونها في الرمال ليشعروا انهم معكم في اوربا . ويلذ لهم ان يضيفوا الى لهيب الصحراء لهيب الخمر ، لانكم تشربونها في البرد ،

المثقفون (*) من ابناء العالم المتخلف عندما يدعون الى حوار كهذا مع المثقفين من ابناء العالم المتقدم - لا يشعرون بحرج لانهم ينتمون الى عالم متخلف ، بل يشعرون بتعقد جديد ومصاعب اضافية تنضم الى ما يعانون ، في بلادهم من صعوبات في الحوار مع مجتمعهم ، بل مع انفسهم ، كل واحد منهم في هذا الحوار يتساءل ماذا يفعل مع لفته المحنطة ، وثقافته التي فقدت حيويتها ، ومجتمعهم المتخلف ، هل يحطم او يرمم ؟ هل يبني على فراغ ام على جدار قد انحنى تحت وطأة القرون ؟ يبدأ من الصفر ام من اللانهاية ؟ يعود الى الماضي ام يبدأ من الحاضر ؟ يلتفت الى الوراء ام يقفز الى الامام في المجهول وحده ؟ .

اننا نعيش في متناقضات مع انفسنا ومع مجتمعنا ، متناقضات بين ماضينا ومستقبلنا ، بين حياننا المادية المصطنعة وحياتنا الفكرية المذبذبة .

نعيش في مجتمع ثقل علينا عبء حمله من القرون البدائية الى عصر التكنولوجيا .

نعيش في خصومة بين المؤمن بالقوانين الطبيعية في نزول المطر ، وبين المؤمن بآرادة الله التي تفعل وحدها كل شيء . خصومة بين قوانين المرور التي نستمدنا من عندكم ونسوق بها السيارة في الشارع ، وبين طبيعة البوي الذي لا يعترف لاحد بالمرور فله . خصومة عندنا بين من يقول تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية غيرك ، ومن يقول : الشيء الذي ابصرته فهو لك ، وما لم تبصره فلك فيه النصف . بين طبيعة رجل يشتري زوجه اخر مودة من اللباس ، ويمنعها من مصاحبتة الى حفلة ساهرة . خصومة بين ما اخفاه عنكم من « اشياء » نكدسها لان اخذها سهل نشتريها فقط ونستعملها ، ولكنها ليست من انتاج حضارتنا - وبين ما يشكل حقيقة الحضارة ، وهو الانسان الذي يعيش بعقله لا بالاشياء المكسدة .

هذه الخصومة نشأت في عصرنا هذا من ان طبيعة الاتصال بين تخلفنا وتقدمكم مرت عن طريق علاقة بين تجارنا وتجاركم ، كان فيها العقل منقيا ، وبين سياسيينا وسياسيكم لم يحضر فيها من الفكر الا عنصر الحيلة ، وبين عسكرينا وعسكريكم الذين كان الجسر

(*) كلمة قدمت في ملتقى « الثقافة العربية وثقافة البحر الابيض المتوسط » الذي اقامه معهد « ايبالو » بين ١٤ و ١٦ كانون الاول ١٩٧٢ في مدينة فلورنسا بايطاليا .

ويرقصون في الخرائب والفبار لانكم نرقصون في القصور وعلى ضفاف
الانهار . انتم اذا حذقتهم من وجودنا كل ما هو انتم ، لا يبقى شيء
تتحاورون معه . ولكن انتم ، ماذا تمثلون في مجتمعكم ؟
هل تمثلون انسان ما بعد الحرب ، كما صورته لنا الوجودية ؟

يعيش في حلقة الخوف واليأس وكما يصفه « مونييه » بانه انسان
متهافت غير متين ، لان معتقداته مقامرة ، ومؤسساته العقلية غير
ثابتة ، والعالم من حوله صامت لا يقول شيئاً والموجودات غارقة في
الوحدة ، والعدم يصاحب كل شيء ، ينظر الى الناس من حوله على
انهم اشياء ، ويتوهم انهم ينظرون اليه على انه شيء ، لانهم سرقوا
حريته فرفض معهم كل تواصل . ام تمثلون في مجتمعكم ذلك الانسان
البورجوازي صاحب الشراسة المتسمة (لنفس الكاتب) . ذلك الذي
يعتبر ان الفضائل الاخلاقية تنحصر في كثرة المطالب والجشع وعدم
الاهتمام بالغير ، لان محبة المال قد التهمت عنده كل الفضائل الاخرى
وحلت عنده قيم الرخاء والبذخ رأس درجات السلم . لا يسمع نداءات
الآخرين لانه لا يرى من التعاسة الا تعاسة الشخصية . ذلك الانسان
الذي نشأ في رجل المال ثم امتد الى التاجر والفلاح والعامل والصانع
وساكن القرية وترك اثره في كل الطبقات ظاهراً كالمسيول المدمرة ؟

لا تنزعجوا ، هذا هو نفس الانسان الذي وصفه ابن خلدون عندنا
قبل ان يحكم علينا الاستعمار الحديث بالفقر العام .
كلا انكم لا تمثلون هذه القيم النافصة . ولا هذا المجتمع الكافر
بالانسان - لانكم انتم الذين تصيحون فيه ليستيقظ . وتعرضون للتيار
فلا يجرفكم ، ولتكنكم لا نستطيعون ايقافه . كما لا نستطيع نحن ان نشعل
النار في الرماد .

لقد استولى على مجتمعنا الاموات كما يقول (أوغست كونت) .
واستولت على مجتمعكم فردية الآلة . واننا لو نستمع واياكم لما نقوله
لنا روح الاستسلام لوجدنا انفسنا في جمهورية افلاطون ، جموع العميد
فيها اكثر من الاحرار ، وعبيد اليوم هم الجماهير التي لا تشعر بشقائنا .
والاحرار فيها هم من يملكون الاساطيل والبنوك والرافض ، وينفقون في
ليلة على شهبانهم ما يعيل اسرا باكملها طيلة عام عندنا ، ولكنهم هم
ايضا ليسوا احرارا لانهم مملوكون لما يملكون ، ان اغلال عبودية العالم
اليوم اصبحت مرة اخرى اغلالا نفسية ، لان الجشع الذي تحكم في كل
الطبقات اصبح هو مركز الرحي في العالم المعاصر .

هذا هو الاله العنيد الذي نار عليه سقراط ، المسيح ومحمد ،
ونار عليه نيشته ماركس وغاندي وروسكين وكروتشي ومونييه .

اننا نقرا وصفا لمجتمعكم (REICH) فنجدكم مجتمعاً يعمل على
نشر اخلاق المتعة ، والهدف عنده هو استفزاز شهوة الاستهلاك من اجل
الازدهار الاقتصادي .

اما العمل في حد ذاته فليس الا حلقة فراغ بين سلسلة اللذات ،
هو وقت تقيب عنه الحياة . مجتمع مدلل لا يعجبه شيء ، ولا شيء في
نظره جميل ، همه ان يشكو باستمرار وهو جالس في حلقة دائرية
تحيط به القابه البراقه ، التي خيبت آماله .

ونقرأ عنكم (بودمير) الالمانى فنجد مجتمعكم عنده اصبح يكثر
من استعمال التقنية الصيدلية ليوافه مشاكل الحياة الحديثة وانعابها
اصبح لا يعتمد على مقاومته الطبيعية ، وانما يصنع وسائل هذه المقاومة
ضد ما صنعه من وسائل المناعب والتعقيد ، وهو نوع من الضعف
العضوي الذي جعل الناس يحسون باي ألم على انه مصيبة عظيمة تفسد

مزاجهم ، وتجعلهم في حالة توتر دائم تشبه حالتهم وهم يسوقون
السيارة . . لقد اصبح كل واحد يساق الى عملية التقدم الصناعي
بدون شفقة دون ان يتصور ماذا يحقق من وراء عمله ، انهم مطالبون
دائماً بالتلاؤم مع ما يظهر من جديد في عالم التكنولوجيا ، وعندما
يشعر بالحاجة الى الروح يصنع لنفسه روحاً بالمواد الكيميائية .

ان التقدم الصناعي لا يد ان يدفع ثمنه بالانحدار الانساني وفقدان
الاسس الاخلاقية . وعالم التكنولوجيا - ولعل هذا قد بدا فعلاً - هو
الذي يتحدر منه الانسان الى العالم البدائي .

ونفس النظرة نجدنا عند (فولكوف) الروسي ، وان كان يعزو
اسبابها لا الى التقدم العلمي والتكنولوجي ، بل الى نوعية العلاقات
الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي .

ولكن ما يهتما من كل ذلك هو ان مجتمعكم ، على ما نفهم ، مصاب
بامراض الشعب . الشعب بكل انواعه وفي مختلف ميادينه المعاشية ،
كما يسميها ابن خلدون عندنا . شعب في الماكل والملبس والعلاقات
الجنسية ، والعمل والتثقف والحروب والقرية والضياع ، انتم
مصابون بامراض الحياة المكثفة القصيرة التي يفضلها ابن سينا عندنا
على الحياة الفارغة الطويلة ، هذه الحياة الفارغة الطويلة التي يعانيها
مجتمعنا نحن ، حياة الجوع بكل انواعه ومختلف اشكاله وميادينه
المعاشية : الجوع في الماكل والملبس والتثقف ، وكل ضروب النقص
الفكرية والمادية . هناك شيء واحد يتميز به مجتمعنا عن مجتمعكم
وغذاؤه منه أوفر ، وهو غذاء الطمانينة والراحة والايامن والرضى الابله
يقابله ما يسميه (فولكوف) عندكم بضياح معنى الحياة وفقدان الايمان
باي شيء وعدم الثقة في اي شيء .

وما عندنا وما عندكم في كلا المجتمعين لا نقره جميعاً ، ونستنكره
ونحاربه ، كل في ميادينه وبالسلح الذي توفر له ، ولكن ما نلاحظه هو
ان صياحكم ضائع في ضجيج الآلة ، وصياحنا ضائع في سكسون
الصحراء ، ولقاؤنا اليوم وحوارنا اذا كان فيه ما يجمعنا حقاً ، فهو
هذا التضامن بيننا ، تضامن الضائعين الغراء في مجتمعات فقدت
توازنها . وفقدان التوازن فيها هو ايضا ما يجمع بيننا لان امراض
الشعب في مجتمعكم ناتجة عن امراض الجوع في مجتمعنا . اننا لا
نفقد من هذا ان تعملوا على ان يتنازل مجتمعكم عن بعض ما عنده
لمجتمعنا ، فنحن هنا نؤمن برأي (تيبورماند) بان مساعدات الدول
المتقدمة للدول المتخلفة هي العرفلة الاولى امام الدول المتخلفة ، لتتغلب
على مصاعبها . ويؤمن الواعون منا بمبدأ الاعتماد على النفس ولا نرضي
بان يأكل البطال الكسول عندنا ثمرة العامل الكادح عندكم ، وان بقي
بعض المسؤولين في العالم الثالث يمدون ايديهم ! ولكن ما نطلبه ، وما
نعتبره حقاً مقدساً هو مبدأ الاحترام . واعتقد شخصياً ان هذا اللقاء
بيننا وبينكم قائم على هذا المبدأ اكثر من اي شيء اخر : مبدأ الاحترام
وتبادل المعارف والتجربة الانسانية ، اننا في الوقت الحاضر لا نصنع
ما نتبادل به واياكم ولكننا نملك من تراننا ما يفيدكم ان تطلعوا عليه .
ولا نظنوا ان الحضارة الحديثة قد حوت كل الحقيقة ، وان ما قبلها
من حضارات قديمة لم تعرف الا الخطأ .

ان ما نعمله في مجتمعنا نحن ، عن وعي وعن غير وعي ، هو
تمجيد القيم التي فامت عليها حضارتكم ، نشر هذا في محيطنا الراكد
المتخلف ونعلمه لاطفالنا في المدارس ، ولكننا لا ندرى بعد اذا كنتم
تقومون في مجتمعكم بمثل هذا التمجيد للقيم التي فامت عليها حضارتنا
وتجاربنا الفنية في الحياة الانسانية . ونحب ان نعتقد ان هذا الملتقى

في أوقات الحرب

يشحدون الخناجر في بهو
هيلتون ، في اي محكمة
يوقفونك متشحا بالدخان الجنوبي
(ازرق يفتر عن وجهه
الرز في غيرة الكتب) .

في اي حفل تلفت طفل المناقع منتفخ البطن
يسأل عن زهر البط ؟ أوقفت آنسة
الخصل الليكية معتذرا دون ان تكمل الرقصة
المستفزة ، هل ابصرت وجه طفل المناقع
متشحا بالدخان الجنوبي آنسة الخصل الليكية
في العشة الارض تخفق ، ايتها الكلمات اخرجي
من ملاجئك الحجرية شعئا ، ملتفة بالجدور
المعراة ، يفمر اقدامك الطين ، في اي منقعة
أورق الرز ؟

(ابصرت سيقانه الخضّر
في قاعة الرقص تلعو ،
وتطفو معي في السرير المؤجر)
ايتها الكلمات المقرحة الحلد ادركنا الفجر
نقتسم القطرات الاخيرة في القدح المتواطىء .

بغداد حسب الشيخ جعفر

نحبي في دغل المدن الرعد ، نقتسم القطرات
الاخيرة في القدح المتواطىء ، تلقى الرياح
الشريدة اوراقها فوق اكتافنا فسي عواصم
منهكة الخصر ، آن التوقف عند الجدور المجددة
الوجه ، آن التوحّد باللهب المتطاول ، في منزل
منزو تحت اجنحة النخل والطير ادركنا الفجر
نكتب آخر لافتة ، في الظهيرة تثقبها فوق
اوجهننا الطلقات السريعة ، يخفي انتظاراتنا
في القرى القتب ، الارض يابسة والنهير
الجنوبي تلفو المبادل عن جانبيه ، تخوض
في مائه الطحلي الضفادع والصبية الصفر ،
منتفخ البطن يحلم في زهر البط طفل المناقع ،
آن التوقف عند الجدور المعراة ، ايتها العشة
الارض يابسة والملوك المباعون في بهو هيلتون
يقتسمون الخرائط ، تلقى الرياح الشريدة
اوراقها فوق اكتافنا ، في الغبار الصليبي
تطفو الحقائق محشوة بالقنابل ، آن التوحّد
باللهب المتطاول ، في اي منقعة اورق الرز ؟
(ابصرت سيقانه الخضّر
في غيرة الكتب تلعو . وابخرة
الساى تفمر أوجهننا . .)

ولكن الاجماع بين هؤلاء واولئك تنخره المتناقضات التي تنشأ دائما
عن المصلحة المادية وتنافسها ، اما المثقفون فعندما يتحدون على المستوى
العالمي ومن اجل خوض معركة الانسان وسعادته ، فانهم لا توجد بينهم
متناقضات لانهم لا يتنافسون من اجل مصلحة مادية وهذه هي قوتهم ،
ولكنهم لم يشعروا بها بعد .

ان المهمة الاولى في تكوين الكتلة التاريخية الجديدة ، المهمة
الحاسمة بالنسبة للمستقبل ، هي اتحاد قوى العمل والثقافة ، تحالف
اليد والفكر على المستوى العالمي .

ولكي ياتي هذا التحالف بشمرته المنعشة لكل شعوب العالم ، فيجب
ان يكون فيه المثقفون على مقربة في حياتهم من قوى العمل ، وتكون
قوى العمل ذات مستوى ثقافي .

هذا ما فعله (سقراط) فحكم عليه بالاعدام من السياسيين . وهذا
ما حاول الاسكندر الاكبر ان يمنع ارسطو من القيام به . وهذا ما
فعله المسيح فانتشرت دعوته بتضحية قوى العمل الفقيرة . وهذا ما
فعله (محمد) الذي كان يقول اللهم احيني مع الفقراء وامتنع مع
الغناء وابعثني يوم القيامة مع الفقراء .

هؤلاء الفقراء هم الذين يتكون منهم اليوم مجتمعك المفتقر الى
الايمان والقناعة والقيم الخلقية . ويتكون منهم مجتمعنا المفتقر الى
الخبز والكتاب والنشاط .

وكل هذا يتطلب منا نحن ان نتحرر من عقدا وتحرزنا منكم ،
ويتطلب منكم انتم ان تحلروا من ان يستخدمكم السياسيون والتجار
لرواج بضائعهم باسهار ثقافي .

عبد الله شريط استاذ في جامعة الجزائر

الذي دعوتونا اليه مشكورين ، هو حركة من هذا العمل ، تريدون ان
تعرفوا من خلالها على تجربة امم اخرى في الحياة غير تجربتكم . لا
لنستفيد السياسة عندكم من هذه المعرفة شيئا ، لنفسها ، بل
لتساعدكم في عملية انقاذ مجتمعكم . ونحن نستجيب لهذا اللقاء ايضا
لانا واثقون ان تجربتنا مهما كانت ثرية فهي لا تفينا عن معرفة تجربتكم
بغيرها وشرها . لان كل حضارة شرها جزء من خيرها .

ان التضامن الذي يجب ان يقوم بيننا نحن المثقفين من انبساء
المجتمعات المتخلفة ، وبينكم انتم المثقفين ابناء المجتمعات المتقدمة هو
تضامن لنفس المعركة . هذا التضامن اصبح ضروريا لان المثقفين في
العالم اليوم سواء منه العالم المتخلف او المتقدم ، اصبحوا اخف وزنا
في مجتمعاتهم مما كان عليه سابقوهم في المجتمعات القديمة ، في
الوقت الذي ندعي فيه بان عصرنا هو عصر العلم والتكنولوجيا والثقافة
ولكن المثقفين فيه لا يؤثرون في توجيهه بقدر ما يستغلهم رجال السياسة
والاقتصاد والحروب في تعريف الحياة الاجتماعية عن قيمها العليا .

لقد انقسموا طائفتين مناطحتين : طائفة تمش بالمثل والكتسب
وتجهل الحياة الصاخبة ، وطائفة انتهازية تبغ ثقافتها كما تباع كل
السلع في الاسواق ، وتنتج حسب الطلب المستعجل الآني ، انتاجا
نسي مشكلة القيم ولم تطرح امامه .

واذا اردنا ان ننقذ مجتمعاتنا المتقدمة والمتخلفة على السواء فيجب
ان نجد نداء ماركس ولكن الى المثقفين ، يا مثقفي العالم اتحدوا !
ان السياسيين اليوم على المستوى العالمي تجمعهم مصلحة استغلال
الشعوب . والاقتصاديين تجمعهم مصلحة استغلال الطبيعة والامخاخ
البشرية .